

## سوارى المسجد النبوي عبدالرحمن بن محمد الأنصاري



ما تزال سوارى المسجد النبوي تنظر إلينا، كما كنا ننظر إليها، ولكن بشيء من الحنين الذي لا تترجمه الكلمات، ولا تفي به الدمعة، ولا يبرد له الجوف.

كنتُ أدخل مع الشيخ عبد الحميد عباس - رحمه الله - فنعشي في أفياء المسجد النبوي، لا نمرّ بساريةٍ إلا وقد أوقفته الذكرى، ولا نجلس إلى ركنٍ إلا وقد أهدق به طيف من الماضي.

كان يتمهّل، ويشير إليّ كمن يخاطب قلبًا لا أدنًا، ثم يقول:

«يا عبد الرحمن... هذه السارية، كان تحتها مجلسُ الشيخ فلان، وتلك للعلامة فلان، وتلك... وتلك... كنتُ أدرك زمانًا، كانت فيه كل سارية تُنبت علماءً، وكل ركنٍ يُثمر فقهاءً، وكلُّ أذنٍ تسمع وكأنها تحفظ، وكلُّ طالبٍ ينهل وكأنما يُسقى من يد النبوة ذاتها».

وكان يقولها برقةٍ لا يطفئها إلا الوفاء، وحسرةٍ لا يشفيها إلا أن يعود الزمان على عقبه.

وكان في قلبه أبيضٌ لا يسمعه إلا من عاش العلمَ في رونقه، وجلس إلى أهله في عهده، وكان في عينه دمعَةٌ لا تذرفها إلا عيون العارفين.

ومع ذلك، لم يكن الحنين عنده مرثيةً ولا تأوّهًا، بل كان حياةً ثانيةً لأولئك الرجال الذين كانوا في حضرة النور، يُعلّمون، ويُقرّبون، ويهتدون ويُهدون.

كنتُ أراه يتحدث عنهم لا كما يُتحدث عن أهل الفضل، بل كما يُتحدث عن الرسل، وكأنهم من قومٍ قد اختصهم الله، ثم طوى بسيرتهم صفحة من الصفحات التي لا تتكرر إلا إذا بعث الأولون من مراقدهم.

ومع أننا وقتها، كنا في زمن حافل بفضلاء كان منهم: عبد العزيز بن باز، ومحمد الأمين الشنقيطي، ومحمد المختار مزيد الجكني، وحمام الأنصاري، وعبد المحسن البدر العباد، ومحمد عمر فلاتة، ومحمد ناصر الدين الألباني، وأبو بكر الجزائري، ومنتصر الكتاني، وعبد القادر شيبه الحمد، وعطية سالم، ومحمد يوسف الهندي السلفي، وعلي السناني... وغيرهم من الذين لا تعرفهم الأرض إلا بقدر ما أفتقدتهم.

ومع وجود أولئك الأجلاء يومئذ، فإن حشرات الشيخ عبد الحميد عباس، على أسلافهم، الذين كانوا يعملون ساحات المسجد النبوي بعلمهم، لا حدود لها!..

واليوم... أمشي وحدي بين تلك السوارى، وأتلمس فيها أثر الخطى، ودفء الأنفاس، فلا أجد إلا الصمت، وبعض بقايا الدعاء.

فأشعر أن الزمان قد تغيّر قليلاً، وأن النور وإن بقي، فقد خفت صوته، وأن الروح وإن وُجدت، فقد قلّت من إحسن الإصغاء لها.

ولستُ أقول ما أقول رثاءً، بل حنينًا إلى عمامةٍ كانت تُعانق النور، وإلى ساريةٍ كانت تُظلل العلم، وإلى مسجدٍ كانت فيه القلوب تسبق الأقدام، والعقول تُصلي قبل الجباه.

عبد الرحمن الأنصاري